الفصل الرابع عشر

صحة الأسرة في التّوجيه النّبويّ والسّلوك الوقائي

البحث الأول:

الطّبّ النّبويّ طبّ وقائي لحفظ الصّحّة

إنّ معظم ما جاء في الطّبّ النّبويّ إنّما هو من باب حفظ الصّحة بالطّبّ الوقائيّ، وليس غريباً أن يكون الأمر كذلك لأنّ التّخطيط الصحي والتّوعية الصّحية إنّما هما من مهام الدّولة، ولقد كان الرسولُ عليه الصّلاة والسّلام أول مؤسس لدولة إسلامية على أساس من شرع الله الحكيم. ومن أجل ذلك كانت التّعاليم والمناهج الصّحية في الإسلام كثيرة، منها ما هو موجود في نصوص آيات القرآن العظيم مؤكداً المهمّة الصّحية للرسول الكريم ﷺ. فعلى الرسول ﷺ أن يبلغها أيضاً وأن يُبيّن بإلهام من الله تعالى ما يتعلق بها من إيضاح وتفسير وأحكام استجابة لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، والتّبيان أمرٌ زائد على التبليغ. وكما أن في القرآن أحكاماً لها مقاصد صحية يعطي تطبيقها مردوداً صحياً على المسلمين عليهم أن يلتزموا بها، فإن في تبيان الرسول ﷺ أحاديث شريفة لها مقاصد صحية يُعطي تطبيقُها مردُوداً صحّياً، عليهم أن يلتزموا بها أيضاً، فالقرآن كالدّستور والأحاديث النّبويّة كالقانون.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٤٤.

وفي العهد النّبوي حيث أحكمت صلة التّعاليم الصّحّيّة بشعب الإيمان وشعائر الدِّين، وفرائضه وسُننه واشتملت فريضتا الصّلاة والحج على حركات رياضية إضافة إلى الفوائد الرّوحية والنّفسية الأخرى، وحُرِّمت الخبائث من ميتةٍ ودمٍ ولحمِ الخنزير؛ لأضرارها على الصّحّة، وحرّم الخمر والمسكرات لِما في تعاطيها من أضرار جسمية واجتماعية، وكذلك حرمت الفواحش وقاية من الأمراض الزّهرية وحفاظاً على تماسك الأسرة وسلامة العلاقات الاجتماعية، وسيأتي التّفصيل في مباحثها. وحقّ للرسالة الخاتمة، التي جعلها الله للنّاس كافّةً، أن تجمع من التخطيط والوصايا والمناهج والتّطبيقات الصّحية ما لا يوجد في غيرها من الرّسالات السّماوية.

لقد سها عن الحقائق التي أوضحتها آنفاً كثيرون ممّن كتبوا في الطّبّ النّبويّ قديماً وحديثاً أو علّقوا عليه كالعلاّمة ابن خلدون في مقدمته، فتكلَّمُوا عن الطّب النّبوي وكأنّ معظمه علاجي أو كأنه طب متكامل، فلم يروا فيه طبًّا واسعاً أو علاجياً واضحاً ذا تأثيرٍ على مجرى الطّبّ العربي، ولو أنّهم توسَّعُوا في دراسة الطّبّ النّبويّ لرأوا أنّ الطّبّ الوقائي في تعاليم الرّسول عليه الصّلاة والسّلام هو الذي ساعد في حفظ صحة الأمّة وهي مُعبّأة للجهاد والتّحرير وليس لها من مناهج صحية إلّا ما تنفذه باسم الدِّين في فجر الإسلام قبل نهضتها الحضارية الدّنيوية الكبرى.

الطّبّ النّبوي الوقائي:

إنّ الباحث في الطّبّ النّبوي الوقائيّ يستدل من نص القرآن على بعض مناهجه، ومن دمج بعضها في صلب بعض العبادات واشتراط الطهارة لأداء كثير من العبادات المفروضة والمسنونة، وربط الثواب أو العقاب على أداء أو مخالفة بعضها، ومن إثارة الاهتمام بالصّحّة وبيان فضلها ومكانتها أنّه يستدل من ذلك على وجود تخطيط صحي إسلامي متميّز، يدفع أتباعه الملتزمين إلى تطبيق مناهجه الصّحية المتميّزة. كما يستدل على أن التّعاليم الصحية في الأحاديث النبوية ليست من باب النصائح غير الملزمة كما توهم بعضهم لأن شطرها يتعلّق

به بيان فرائض ومحرمات. كما يستدل على أنّها لا علاقة لها البتة بالطّب الإسرائيلي طالما أنّها مفسِّرة ومفصّلة ومكمّلة لما ورد في القرآن الكريم، وإن النّقاد من المختصين بعلوم الحديث بيّنوا صحيحها وحسنها من ضعيفها وموضوعها. وإذا أردنا أن نقيّم المهام الصّحّية في الحكومة النّبويّة، وأن نُقدِّرَ لها حقَّ قدرها يجب أن لا ننظر إليها بمنظار المهمات الصّحّية لوزارة الصّحة في دول هذا العصر، ولكن بمنظار يعتبر المستوى الصّحي في العالم أجمع في العهد النّبوي وخاصّة في الدّول المجاورة، كما تعتبر الظروف والمنجزات العديدة التي تمت في عهد الرّسول عليه الصّلاة والسّلام وخاصة إبان تكوّن الدولة الإسلامية العربية الأولى في العهد المدني ومدته عشر سنين مملوءة بالأحداث؛ أرسل فيها رسول الله ﷺ ما يُقارب من سبعٍ وعشرين سريّة صغيرة وكبيرة للقيام بمهمات عسكرية خاطفة، فاشتبكت مع العدو في ثلاثة عشر موقعاً. كما قام عليه الصّلاة والسّلام مع أصحابه الكرام بما يُقارب من سبعٍ وعشرين غزوةٍ انتهت تسعُ غزوات منها بمعارك ضارية.

وكان الرّسول عليه الصّلاة والسّلام في تلك الغزوات يقودها ويُديرها ويقاتل فيها، ما عدا غزوة مُؤتة. وعندما مرض رسول الله ﷺ مرض الموت كان يعدّ حملةً تأديبية للروم بقيادة أسامة بن زيد رضي الله عنه.

وسترى في أبحاث هذا «الفصل» أنّ من تعاليم الإسلام في الطب الوقائي ما يعد إبداعاً لم يُسبق لمثله، ثم جاء العلم الحديث بعد أكثر من عشرة قرون مؤيّداً تلك الإرشادات، مثيراً في المطلع إعجاباً بما يراه من سبق علمي دالٍّ أيضاً على صدقه عليه الصّلاة والسلام في نبوّتِهِ ورسالته، وما أكثر الأدلة والبراهين على ذلك.

وبقيت تعاليم الإسلام الصّحّية ذات قدسيّةٍ، وذات مردود صحيٍّ حسن في متّبعها وموضع احترام من الطّبّ الحديث، وستبقى كذلك فإنّها تشريع الله للنّاس كافّةً لجميع شعوبهم، وفي كل المستويات الحضارية: في المدن والأرياف والبوادي، يمكن تطبيقها على مرّ العصور إلى جانب ما جدّ من وسائل علميّة تطوّر الطّبّ الوقائي وترقّيه.

البحث الثاني:

رعاية الإسلام لمصلحة الإنسان[١]

إنّ جميع التّكاليف الإسلامية في ابتدائها ودوامها رُوعي فيها التخفيف والتيسير على الناس. يقولُ الله ﷻ: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[٢]. ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٣]. ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٤] فهذه الآيات صريحة في التزام مبدأ التّخفيف والتّيسير على النّاس في أحكام الشّرع. وفي الأحاديث النّبويّة ما يُؤيِّد هذا المبدأ حيث يقول الرسول عليه الصّلاة والسّلام: «**بُعِثْتُ بالحَنِيفِيّةِ السَّمْحَةِ**»[٥] «**إنّ هذا الدِّين يُسْرٌ، ولن يُشادَّ الدِّينَ أحدٌ إلّا غلبه، فسدِّدُوا وقَارِبُوا وأبْشِرُوا**». والمقصود بقوله: «**سدِّدُوا**»: اقصدوا السّدادَ من الأمر وهو الصواب. والمقصود بقوله: «**قارِبُوا**» اطلبُوا المقاربة وهي القصد من الأمر الذي لا غلوَّ فيه ولا تقصير[٦].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا، وبَشِّرُوا ولا تُنَفِّرُوا**»[٧].

مما تقدم نستدلُّ على أنّ الله تعالى لم يقصد بالتَّكليف الإعنات، وأن القاعدة الفقهية: «المشقَّةُ تجلبُ التّيسير» صحيحة مقتبسة من تلك الآيات والأحاديث النّبويّة.

---

(١) الطب النبوي والعلم الحديث: للدكتور محمود ناظم النسيمي ج ١/ ١٣٠ - ١٣٢، ط مؤسسة الرسالة - بيروت.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.
(٤) سورة الحج، الآية: ٧٨.
(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده.
(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده.
(٧) رواه البخاري ومسلم في صحيحهما.

ويدعم المعاني المتقدمة ما نرى في شرع الإسلام من رُخَصٍ؛ فما من أحكام العبادات أو المعاملات إلا وشرع إلى جانبه سبل التيسير فيه، فلقد شرع الإسلام الصّلاة بأركانها الأساسية وشرع إلى جانب ذلك الأحكام الميسرة لأدائها عند لحوق المشقّة كالجمع والقصر في صلاة المسافر والصّلاة من جلوس للمريض مثلاً. وشرع الصّوم وشرع معه رخصة الفطر بالسّفر والمرض وشدة الجوع أو العطش ممّا يغلب على الظن معهما توقع الهلاك أو الوقوع في مرض.

وشرع حكم الطّهارة من النّجاسات للصلاة وشرع معه رخصة العفو عمّا يشق التّحرز عنه كدم القروح ومفرزاتها وأثر نجاسةٍ عَسُرَ زوالُهُ، وزرق الطير إذا عمّ المساجدَ والطرقات. ونهى عن النظر إلى الأجنبية وأرخصَ فيه عند التّعليم والإشهاد والمعاملة والمُعَالجة.

وحرم الخبائث كالميتة والدّم ولحم الخنزير ورخّص في تناولهما في حالة الاضطرار، كما رخّص بالتّداوي بالمحرمات عند الضّرورة.

وأمر بالجهاد وأعفى من إثم التّخلّف عن المريض والأعمى والأعرج ومن لا يجد وسيلةً ليكون مع ركب المجاهدين. ولقد انعقد الإجماع بين علماء الأمة الإسلامية على عدم وقوع المشقة غير المألوفة في التّكاليف الشرعية مما يدل على عدم قصد الشّرع إعنات المكلّفين أو تكليفهم ما لا يطيقون. «نظرية الضّرورة الشّرعية للدكتور الزّحيلي، وضوابط المصلحة في الشّريعة الإسلامية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في بحث المشقّة تجلب التيسير».

ولقد فهم من مجموع الشّريعة الإذن في رفع المؤذيات والمؤلمات رفعاً للمشقّة اللاّحقة، بل أذن لهم في التّحرز عنها عند توقّعها وإن لم تقع كالإذن في دفع ألم الجوع والعطش والحرّ والبرد، وفي التداوي عند وقوع الأمراض، وفي التّوقي من كل مؤذٍ آدمياً كان أو غيره، والتّحرّز من المتوقعات حتى يقدم لها العدّة، وهكذا سائر ما يقوم به عيشُه من دَرْءِ المفاسد وجلب المصالح.

البحث الثالث:

الوقاية من الأمراض النّفسية في هدي الإسلام[١]

إنّ التّوازن بين القِوَى العضوية والنّفسية المكوّنة للشخصيّة ضروري لحفظ الصّحّة العقلية، فكل اضطراب عقلي هو مشكلة شخصية لا يمكن معرفتها إلّا بدراسة الشّخصية المصابة دراسة كاملةً من نواحيها الفيزيائية والعقلية والنّفسية والاجتماعية، ودراسة تطوّر هذه النّواحي في تلك الشّخصية بالذّات.

فإذا كان اضطراب التكامل الذي أدّى إلى اختلال الشخصية وفقد تلاؤمها عضوياً، قيل: إنّ هذه الاضطرابات النفسية الحادثة فيزيولوجية المنشأ، وأمّا إذا نجمت هذه الاضطرابات عن التّجارب النفسية الداخلية قيل: إنّ هذه الاضطرابات نفسية المنشأ. فدراسة أسباب المرض العقلي أو النّفسي هو دراسة القوى الكامنة تحت عواطف الشّخص، واهتماماته ومزاجه واعتقاده وسلوكه وأخلاقه.

ويُعتبر من المؤثرات النّفسية المرضية: الوراثة، والمراهقة، والعزوبة، وفترة الحيض، والحمل، وتأثير محيط الأسرة، وتأثيرات اجتماعية معينة.

ولهذا كانت سنّة رسول الله ﷺ في الحياة الواقعية والعملية ذات مردودٍ جيدٍ في الوقاية من الأمراض الجسمية والنفسية.

إنّ الطبّ الوقائي يجب أن يُعطىٰ عنايةً فائقة في كل بلدٍ ودولة على مستوى العلوم الكونية السّائدة في عصرها.

ولهذا تضمّنت سُنن رسول الله ﷺ الشيء العظيم في مجال الطّبّ الوقائي، إن العلوم الحديثة كلّما تقدمت اكتشفت خصائص هذا الطّبّ الوقائي الذي يحول دون وقوع الكوارث الصّحية، أو يُقلّل من شيوعها وانتشارها.

إنّ التّربية البيتية السّليمة، والتّوجيه الأُسري القويم، القائم على فهم

---

(١) الطب النبوي والعلم الحديث: للدكتور محمود النسيمي ج ٢/ ٧ - ١٢، باختصار.

الإسلام فهماً صحيحاً ومتكاملاً، ثم الالتزام بأحكامه وتوجيهه وإرشاده، ضمان للبنية البشرية الصّاعدة، وبمقدار ما يكون الانحراف عن منهج الإسلام، أو سوء فهمه؛ تكون الارتكاسات النّفسية متفاقمة لدى المنحرفين عن الإسلام، أو لدى الجاهلين به.

ولهذا يجب على كل فرد من أفراد الأُمّة أن يعمل على تحصيل القدر الكافي من الثقافة الإسلامية، والأخلاق الإسلامية، والآداب الإسلامية، لحماية النّفس ممّا يُقلقها ويُزعزع كيانها، من الأخلاق السّيّئة والعادات المشينة، فالمسلمُ المتخلّق بأخلاق الإسلام والمتأدّب بآدابه والملتزم بأحكامه محميٌّ من الأمراض النّفسية الخطيرة.

ونحن في البحث عن «مناهج بناء الأسرة المسلمة» نُسلّط الأضواء على خطر «العُزوبة» التي تُعتبر المعطّل الأكبر في بناء «الأسرة المسلمة».

خطر العزوبة على الإنسان:

يبدو من الإحصاءات أنّ المرض النّفسي والعقلي أكثر حدوثاً بين العُزّاب منه بين المتزوّجين - رجالاً ونساءً - ويُعزى ذلك إلى تمتع المتزوجين بالحياة المستقرّة والمنظّمة مع ما يرافقها من الشّعور بالمسؤولية، والسّبب الهامّ في ذلك يعود إلى الطمأنينة التي يحياها المتزوّجون، فالحياة الزّوجية لا تُوفر إشباع الغريزة الجنسية فحسب، بل تُوفر جوانبَ عديدة في تحقيق الطمأنينات التي إذا فُقِدتْ في حياة الإنسان أخلّتْ بشخصيته، فشعور الزّوج بأنه موضع تقديرٍ واهتمامٍ وحبٍّ من الزّوج الآخر يُحقق شعوراً عميقاً بالطمأنينة، ويُضاف إلى ذلك التخلّص من الوحدة، التي نهى عنها رسول الله ﷺ، فقد أخرج الإمام أحمد بإسنادٍ صحيح عن ابن عمر: «أنّ النّبيّ ﷺ نهى عن الوَحْدَةِ؛ أنْ يبيتَ الرّجلُ وَحْدَه، أو يسافرَ وَحْدَهُ»(١).

ثم إنّ تحقيق الرّغبة لدى الزّوجين بالأبوّة والأُمومة، ينبعث منها الشّعور

(١) مسند الإمام أحمد، ج ٢/ ٩١.

بالطمأنينة الإنسانية والرّضى الكامل في النّفس، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]. وامتدح الله تعالى عباده المؤمنين الصّالحين بسؤالهم طلب الذّرّيّة الصّالحة فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[3].

فالزّواجُ السّليم النّاجح وقايةٌ من الأمراض النّفسية، وحماية من الضّياع والشّقاء!.

البحث الرابع:

التوكل على اللّه مع التداوي[4]

التّوكل هو اعتماد القلب على الله الوكيل وحده في نجاح الأعمال والأسباب المشروعة لبلوغ مسبباتها المقصودة والمشروعة أيضاً.

والأسباب إما أن تكون أعمالاً إيجابية وقائية كاللقاح ضد الإصابة بمرض معيّن، أو علاجية كالتّداوي والعمل في الحرفة، أو أعمالاً سلبية بالتّرك كترك بعض الأطعمة في الحمية المرضية، وعدم مجالسة المصاب بمرضٍ سارٍ عن طريق التّنفس مثلاً وعدم المشي على حافة جرفٍ هارٍ.

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٤.
(٣) سورة النّور، الآية: ٣٢.
(٤) الطب النبوي والعلم الحديث: للدكتور محمود ناظم النسيمي ج ١/ ١٣٥ - ١٣٨، ط مؤسسة الرسالة - بيروت.

وأساس التّوكل مع الإتيان بالأسباب هو الاعتقاد بأنّ الله مالك الملك، لهُ القوّة جميعاً بيده الخيرُ وهو على كل شيءٍ قدير.

وللتوكّل على الله تعالى درجات أدناها الثّقة بكفالة الله وعنايته وهو المطلوب من كل المسلمين تصديقاً بقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[١]. وكما يرتبط التّوكل بالعمل فإن له ارتباطاً بالإيمان على أساس أنّ القدر من إلٰهٍ عليمٍ خبيرٍ مريدٍ عادلٍ حكيمٍ.

إنّ التّوكل عملٌ من أعمال القلب وهو شعبةٌ من شعب الإيمان، وبابٌ من أبواب المحبّة الإلٰهية، يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[٢]. ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[٣]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[٤]. وبه يحصل اطمئنان النّفس وسكينتها في دار الدنيا وبه يحصل الثّواب الجزيل في جنّات النّعيم.

ولا تضادَّ بين التّوكل والعمل: وبما أنّ التّوكل من الأعمال القلبية وهو شعبة من شعب الإيمان بإلٰهٍ واحدٍ، فلا تضادّ بينه وبين الأعمال الحسّيّة غير المحرمة سواء أكانت مباحة أم واجبة، فالمسلم يؤدّي الأسباب المشروعة معتمداً في بلوغ الغاية والمقصود منها على الله وحده، فيعطي الفلاّح الزّراعة حقها من اختيار البذار وفلح الأرض وتعشيبها وريّها ومكافحة الحشرات ضمن إمكانياته وطاقاته ويعتمد على الله راجياً أن يكلل عمله بالنّجاح وأن يُعطيه الثّمرات الطّيّبة لِما قدَّمَ.

وكذلك الطّبيب يتقن عمله ويتابع دراسته من أجل معرفة التّطوّر العلمي في التشخيص والمداواة ويُدقق في فحص مريضه، ثم يصف الدّواء معتمداً على الله أن يُكلّل عمله بالنّجاح، وأنْ يُشَافي مريضَهُ. وكذلك المريض يتقيّد بالحمية والدّواء الموصوفيْن من قِبَل الطّبيب ويتوكل على الله في بلوغ الشّفاء والعافية.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣٦.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١١.
(٣) سورة الطلاق، الآية: ٣.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

أمّا النّتائج الغيبية والطوارىء التي تعرض فهي ملك الله تعالى تنزل وفق قدره أي وفق علمه المقرون بحكمته وإرادته ورحمته وعدله تبارك وتعالى.

إن هذا الربط بين التوكل والعمل ليس بدعاً من القول، وإنّما هو ما يدلُّ عليه القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[١]. ففي الآية أمر بالتقوى وبالتوكل، والتقوى تكون بطاعة الله بعمل أوامره واجتناب نواهيه. وقال تعالى: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾[٢]، أي شاور أصحابك في شؤون الدولة والحرب فإذا عَزَمْتَ على إمضاء ما تريد بعد المشورة فنفذه وتوكّلْ على الله، فالتّوكّل يقارن الإرادة المصممة العازمة على إجراء عمل مشروع. وقال رسول الله ﷺ: «**لو أنّكم كنتم تتوكَّلُون على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يُرْزَقُ الطّيرُ تغدُو خماصاً وتروحُ بِطَاناً**»[٣]. أي تغدو بكرة وهي جياع وتروح عشية وهي ممتلئة الأجواف شِباعاً، والمعنى: لو أنكم كنتم تتوكَّلُون على الله في مساعيكم حقّ التّوكل لما خيّبها ولسهّل لكم سبل العيش فيأتيكم رزقكم كما يأتي الطير تغدو خماصاً وتروحُ بِطَاناً. فلم يقل الرسول عليه الصّلاة والسلام: يأتيها رزقُها إلى أعشاشها دون أن تفتش عن قوتها.

وفي القرآن العظيم قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾[٤]. فأمر الله بالعمل ونسب الرّزق إلى نفسه. وقال سبحانه في سورة الجمعة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾[٥].

ولئلا يُخطىء المسلم في فهمه فيتذكر قدرة الله على كل شيء ويغفل عن حكمة الله تعالى في خلق الأسباب فيتقاعس ويهمل متعلّلاً بالتّوكل والقدر لجهل في فهمهما، بيّن الرسول عليه الصّلاة والسّلام أن الأخذ بالأسباب هو من قدر

(١) سورة المائدة، الآية: ١١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.
(٣) صحيح الجامع الصغير برقم ٥٢٥٤.
(٤) سورة تبارك، الآية: ١٥.
(٥) سورة الجمعة، الآية: ١٠.

الله تعالى. فعن أبي خزامة عن أبيه قال: قلتُ: يا رسولَ الله أرأيتَ رقاة نسترقي بها، ودواءً نتداوَى به، وتُقَاةً نتقيها، هلْ تردُّ من قدر الله شيئاً؟ قال: «هي مِنْ قَدَرِ الله»[1]، أي أن الله قدّر أن تكون للمطالب والمراغب أسباب، فمن أهملَ الأسباب المادية والروحية والوقائية والعلاجية، فقد جهل حقيقة التّوكل والإيمان بالقدر.

(١) سنن البيهقي ج ٩/ ٣٤٩.